لا درَّ درُّ اناس خاب سعيهمُ يستمطرون لدى الأزماتِ بالعشرِ
أجاعلٌ انتَ بيتوراً مسلّعةً ذريعةً لكَ بين الله والمطرِ

اي بحرق اغصان الشجر مربوطة باذناب البقر لكي يراها الله ويشفق عليها ويوقع المطر اطفاء لنارها ولا يستحيل ان يأتينا الغد بما ليس في الحسبان فان الذين اوجدوا سيلاً للتخاطب على الوف من الاميال ولنقش الصوت على صفائح المعادن ورسم النور على صفائح الزجاج قد لا يتعذر عليهم ان ينزلوا المطر من السحاب ويروون به جميع الاماكن

مناظرة الحواس

قال الاقدمون الحواس خمس وتابعهم المتأخرون الى عهد قريب. الاّ ان المعاصرين رأوا ان لا بدّ من ان يُضاف الى هذه الحواس حاسّة الحرارة والبرودة والحاسة العضلية وحاسة التوازن وحاسة المغنطيسية هذا في الانسان اما الحيوان الاعجم ففيهِ حواس أخرى لاعلم لنا بها فقد بيّن السر جون لبك بالامتحان ان عيون النمل ترى في الطيف الشمسي نوراً لا تراهُ عين الانسان وذلك وراء اللون البنفسجي من الوان الطيف

وقد ارتأى ديوفريطس ان حواس الانسان كلها مشتقة من حاسة اللمس ومضى على هذا الرأي الفان وثلثمئة سنة قبل ان اقام احد دليلاً على صحتهِ اما الآن فالظاهر من علم البيولوجيا ان الحواس كلها مشتقة من حاسة متوسطة بين حاستي النظر واللمس ولم يثبت ذلك بالدليل القاطع حتّى الآن ولكن الادلة قوية على احتمالهِ. ويستدلُ ايضاً بادلة اخرى ان حواس البشر يناظر بعضها بعضاً فتنوب الواحدة منها مناب الاخرى اذا اصاب احداها آفة او تغلّب عليها بمجرّد الممارسة والاستعمال وعلى ذلك مدار الكلام في هذه المقالة

والمناظرة على اشدها بين السمع والنظر وكأن لسان حال الطبيعة يقول خُذ ما تراهُ ودع شيئاً سمعتَ بهِ او كأنّ الناس كادوا يهملون الاعتماد على السمع ويقتصرون على الرؤية. وقد اطلعنا على مقالة مسهبة في هذا الموضوع للدكتور بترك استاذ الفلسفة في مدرسة ايول الجامعة ذهب فيها الى ان هذا التغيير قد حدث تدريجاً من كثرة اعتماد الناس على ما يرون في الكتب والجرائد يوماً بعد يوم وقلة اعتمادهم على ما يسمعون وعندهُ ان ذلك سيؤدي الى تنوية حاسة البصر وضعف السمع والذاكرة واضمحلال صناعة الموسيقى والى تغيير عظيم في الانسان ننسهِ. ومن الادلّة التي اقامها على ذلك ان الافكار قد صارت

تصورات مجرّدة ممّا تراهُ الباصرة حتّى ان كثيرين صاروا لا يفهمون معنى كلمة يسمعونها ما لم يروا لها صورة معلومة في نفوسهم او صورة ما تدلُّ عليها من الاشياء ومن ثمَّ اشتقَّ التصوُّر الذهني من الصور المادية . هذا في حال اليقظة واما في حال النوم والغيبوبة فكل ما يعرض للنفس يكون في شكل صور ومن ثمَّ سمّي الحلم رؤيا لان من يحلم يرى الاشياء والاشياء رؤيةً وفي النادر يحلم انهُ يسمع صوتًا وابندر من ذلك ان يحلم برائحة يشمها

وهذا كلهُ حقيقي فاننا بحثنا عمَّن يحلم بالرائحة فلم نرَ الاَّ شخصًا واحدًا قال انهُ حلم مرة برائحة الزنبق الاَّ اننا لا نعلل ذلك كما علله الدكتور بترك بضعف اصاب حاسة السمع والشم وقوَّة تولَّدت في حاسَّة البصر لان الاشتقاق اللغوي للتصوُّر والرؤيا قديم جدًّا بل قد يكون اقدم من عهد اليونانيين الذين يقول ان حاسة السمع كانت قويَّة في عصرهم كما سيجيء بل نعلّله بان تأثير المرئيات يبقى ثابتًا في الدماغ ثبوت الصور الفوتوغرافية بخلاف تأثير الصوت وتأثير الرائحة فانهما فعلان مفارقان يزولان بعد زوال المؤثِّر ويؤيّد ذلك ان الرجل الذي حلم برائحة الزنبق كان الزنبق في الغرفة التي نام فيها فاثرت رائحتهُ بعصب الشم فشعر بهذا التأثير شعورًا خفيفًا وهو نائم كانهُ حلم بهِ . اما المسموعات فقد ترتسم صور ما تدلُّ عليهِ في الدماغ فيحسُّ بها الانسان وهو نائم ويظن انهُ يسمع الاصوات التي تدل عليها . ولا دليل على ان الناس الذين لم يكثر اعتمادهم على حاسة البصر يحلمون بالاصوات والروائح كما يحلم غيرهم بالصور

ولا مشاحة في ان العين انبه من الاذن فتراها يغلب على الدوام وعليها اعتمادنا في اختيار المأكل والمشرب والمسكن والملبس وبها نستعين على القراءة والكتابة والخياطة والرسم والتصوير وما اشبه . وهذه الاعمال قد تصير آلية بطول المزاولة فتتدرَّب اليد عليها حتّى تجري فيها والعينان مغمضتان ولكن لا بدَّ من الاستعانة بهما مرةً بعد اخرى حتّى ان الموسيقي المنوقفة على السمع لا بدَّ فيها من استعمال العين احيانًا . وقد قال الدكتور بترك ان الاعتماد عليها زاد منذ النيِّ سنة الى الآن فاليونان القدماء كانوا يعتمدون على الاذن اكثر مما نعتمد عليها نحن الآن واستعملوا معها اللسان كما نستعمل نحن اليد مع العين فكانوا اهل خطابة وسماع كما نحن اهل كتابة وقراءة وكانوا يتغنّون بتلاوة الاشعار ونحن نقرأها بعيوننا ولا نتلفظ بها . وكانوا يجتمعون في مجالسهم وحلقاتهم يبحثون في المسائل السياسية ونحن نبحث فيها في جرائدنا . وكانوا يلقون الفلسفة القاء ونحن نكتب فيها في الجرائد الفلسفية والعلمية . وكان لفن الموسيقى المقام السامي بين دروسهم ونحن قلما نعبأ بهِ في مدارسنا . وكان

الشعر والموسيقى من لوازم الحياة عندهم وكان الاعتماد فيها وفي بقية العلوم الشرعية والادبية على التلقين والحفظ لا على الكتابة والقراءة حتّى ان اشعار هوميروس انتقلت من السلف الى الخلف بالسماع والحفظ وجرى القول ان العلم في الصدر لا في الكتابة ومَن علمهُ في كتابهِ كان خطأهُ اكثر من صوابهِ اما الآن فصار العلم في الكتاب لا في الصدر

والتغيير الذي ذكرهُ الدكتور بترك حقيقي ولكنهُ لا يقتضي الفي سنة ولا مئتين ولا عشرين سنة . ولو اقام في بلاد المشرق لرأى ما نراهُ وهو ان اكثر المعاصرين كانوا منذ عشرين او ثلاثين سنة يعتمدون على آذانهم في تلقي العلوم والمعارف كما كان اليونان يعتمدون عليها ثم لما كثرت الكتب والجرائد بين ايدينا لم نعد نعتمد على الاذن والذاكرة كما كنا نعتمد عليها قبلاً بل على العين والكتاب شأن الاوربيين والاميركيين في هذا العصر . وانا نعرف كثيرين كانوا يذكرون اكثر آيات التوراة والانجيل ويعيّنون فصولها واعدادها قبل ان طُبع منتاح الكتاب فلما طُبع وصاروا يعتمدون عليهِ نسوا ما كانوا يحفظون ويكادون الآن لا يجدون آية في الكتاب بدونهِ . وطلاب الاسلام يذكرون آيات القرآن في سورها واجزائها ولو شاع بينهم منتاج الكتاب واعتمدوا عليهِ لخانتهم الذاكرة ولم يعد يمكنهم ان يجدوا مكان آية الاَّ باستخدامهِ . وانا نعرف كثيرين من الذين عمرهم خمسون او ستون سنة يرون صورة الرجل فلا يعلمون أصورة رجل هي ام صورة امرأة ام صورة حيوان ام صورة جماد لان عيونهم لم تتدرّب على رؤية الصور ولكنهم يحلّون المسائل الحسابية العويصة غير مستعينين بالقلم والقرطاس . وقد تغيّرت الحال الآن فصار الاطفال يميزون ما لا يميزهُ اجدادهم من الصور وصرنا لا نقدر ان نعمل عملاً حسابيًّا صغيرًا بغير قلم وقرطاس . وقد حدث هذا التغيير كلهُ في بضع عشرة سنة بل قد يكفي لهُ بضع سنين . ولا يخفى ان كل تغيّر من هذا القبيل يقتضي حصول تغيّر في مراكز الذاكرة المختلفة وتوليد مجهزات جديدة ولكن حصول هذا التغير وتوليد هذه المجهزات لا يقتضي الوقتَ ولا عشرات من السنين لان اجزاء الدماغ التي فيها مراكز الذاكرة سريعة الانفعال والتغيّر ولاسيَّما في سن الصبوة وعلى ذلك يتوقف تعليم الصغار مبادئ العلوم والفنون فترى الابنة الصغيرة التي لم تناهز العاشرة تعرف من الانغام الموسيقية والحوادث التاريخية والاسماء الجغرافية والقواعد الحسابية واللغويّة ومفردات اللغات الاجنبية ما يقضي بالعجب وما ذلك الاَّ لانهُ ربي في دماغها مراكز مختلفة لهذه المحفوظات المختلفة

ولا شبهة في ان اسلوب التعليم الجديد يقتضي استعمال العين اكثر من استعمال الاذن

فترى مدرّس اللغة والرياضيات يستعين بالكتابة والرسم على لوح اسود كبير قائم امام الطلبة لكي يراهُ قريبهم و بعيدهم وترسخ صور ما يرونهُ في اذهانهم . وقد تطرّف بعضهم في ذلك فصار لا يعبّر عن معنًى الاّ برسمهِ فترى دوائر العروض مرسومة باشكال هندسية واعراب الجمل موضحًا باشكال ورسوم وكل المسائل الاحصائية مرسومة رسمًا . وقد شاع تمثيل اكثر العلوم بصور تراها الباصرة فلا تدخل مدرسة عالية الاّ وتجد فيها الخرائط والكرات الارضية والفلكية والمُثُل الحيوانية والنباتية والجماديّة والاجسام الهندسية والآلات الميكانيكية والطبيعية والكيماوية حتّى ان التلميذ لم يعد قادرًا على تجريد صورة كلية الاّ مما يراهُ بعينهِ مع ان اباءنا كانوا يجردون هذه الصور مما يسمعونهُ . وشاعت الكتب المصورة وصارت ضرورية لتعليم العلوم والفنون . والارجح ان طريق العين اقرب الى النفس من طريق الاذن فاذا تلوتَ على سمع انسان حد المخروط ساعة كاملة لم يدرك ما تريد مثلما لو اريتهُ جسمًا مخروطًا لحظةً من الزمان . ولعلّ الحال لم تكن كذلك حينما كان الناس يعتمدون على الاذن وذاكرة المسموعات فاننا لما درسنا الهندسة لم تكن الصور قد شاعت في بلاد الشام فكان يسهل علينا تصوُّر الاشكال الهندسية وفهم برهانها بمجرد السمع بل كان يسهل علينا حل المسائل الهندسية بغير ان نرسمها على القرطاس . ولو كانت الصور الذهنية مجموعة من صور الخطوط والاقواس التي يقع عليها البصر اولاً . اما المنطق فحتى الآن لا يستعان عليهِ عندنا بالاشكال والمعادلات الجبريّة خلافًا للافرنج الذين كادوا يجعلونهُ من العلوم الرياضية كالجبر والهندسة

وقد احسن الدكتور بترك في نسبتهِ اكثر هذا الانقلاب العظيم الى اختراع الطباعة وشيوع الكتب والصور فان انتشار الكتب والجرائد صرف الناس عن الاعتماد على آذانهم الى الاعتماد على عيونهم في تلقي المعارف . ولو اقتصر الامر على انتشار الكتب لبقي مجال واسع لاستعمال الاذن ولكن الجرائد اليومية نأتيك باخبار المسكونة فترى فيها في ساعة ما لا يمكن سمعهُ في بضع ساعات ولم يزل امر هذه الجرائد ضعيفًا عندنا بخلاف جرائد الاوربيين فان النسخة منها قد تعي اكثر من عشرين نسخة من جرائدنا فيضطر القارئ ان يمرّ بصرهُ على ما فيها مرًّا ولا يستوعب الاّ ما لهُ في مطالعتهِ غرض . ومع صغر جرائدنا تراها طافحة باخبار المسكونة من الهند والصين الى اقاصي اميركا فترى الرجل الذي لم يكن يهتم بما يجري في القرية المجاورة لقريتهِ يهتم الآن بحوادث الصين وثورة شيلي ومنتل بولنجه وزيارة كرنستاد واقوال بسمرك وخطب غلادستون فما تولك بجرائد اوربا الكثيرة العدد الكبيرة الجرم المختلفة الانواع

فانها لا تترك موضوعًا عموميًا ولا خصوصيًا الاَّ وتفيض فيهِ وكثير منها مصوَّر فتستجلي العين مافيها بلمحة واحدة وقد تستغني بذلك عن مطالعة الصفحات الطوال وفي هذه الجرائد صفحات كثيرة مملوَّة بالاعلانات المختلفة يُعرَض بها بيع كل ما يباع ويشترى واجرة كل ما يؤجر من مأكل ومشرب وملبس ومأوى وعلاج وكتب وجرائد ومعلمين ومربين ومحامين وآلات وادوات ومركبات وامتعة ومواعين وتُذكَر فيها اوقات الاجتماعات العمومية على انواعها فتغني مَن يطَّلع عليها عن السؤال والبحث واستعمال الاذن واللسان

وقد كان الاوربيون يقتصرون على سماع الالحان الموسيقية في ملاهيهم فانقلبوا عن ذلك الآن وادخلوا التمثيل مع الموسيقى ثم كادوا يقتصرون عليهِ . ومما لا مريبة فيهِ ان الناس يسرُّون الآن بالتمثيل الذي لا كلام فيهِ (البنتوميم) اكثر مما يسرُّون بافصح الاقوال وابلغ المعاني . ومنذ عهد قريب كان الناس عندنا يكتفون بسماع اقوال القصاصين وغناء المطربين ولا يبعد ان يصيبهم ما اصاب الاوربيين فيصيرون يفضلون التمثيل المنظور على كل منظوم ومنثور

وقد ضعفت قوة الخطابة عند الاوربيين اكثر مما ضعفت عندنا واكثر الخطب التي تتلوها في جرائدهم كان مكتتبًا وتلي تلاوةً على السامعين ولم يرتجلهُ الخطباء ارتجالاً . ولم يعد المحامون يعتمدون على قوة الحجة في كلامهم بل على ما يكتبونهُ من الاوراق التي يسلمونها للقضاة . وضعفت ذاكرة السمع على اثر ذلك وستزيد ضعفًا على توالي الايام اما ذاكرة البصر فقد لا تزيد قوةً لان المرئيات تمر امام العين مرَّ السحاب بل اسرع فلا وقت لحفظها وترسيخها في الذهن وشاهد ذلك انهُ عند اول نشر الجرائد في بلادنا كان القرَّاء يحفظون ما يتلونهُ في العدد الواحد الى ان يصدر العدد الآخر بعد اسبوع او اسبوعين فكانت جريدة الجنان مثلاً تدرج رواية غرامية وهي تظهر مرتين في الشهر فيستطيع القراء ان يتذكروا علاقة الكلام من عدد الى عدد اما الآن فكثيرون منهم لا يذكرون العلاقة من اسبوع الى اسبوع ولاسيما اذا كانوا من كثيري المطالعة . اما ضعف الذاكرة فلنا عنهُ عوض بالقلم والقرطاس فالتاجر الذي ضعفت ذاكرتهُ عن ايعاء حساباتهِ يعيها دفترهُ فهو احرص عليها من الذاكرة والعالم الذي تضعف ذاكرتهُ يعود الى الكتاب فيجد فيهِ ما يطلبهُ واما ضعف الاذن وعدم الانتباه للمسموعات فخسارة لا تعوَّض لاسيَّما وان للموسيقى اليد الطولى في تدميث الاخلاق وطرد الهموم والغموم فعسى ان لا يغفل المشارقة امرها ولا يميلوا الى التمثيل كل الميل فلا يصيبهم ما اصاب الاوربيين من هذا القبيل